بسم الله الرحمان الرحيم

غزوة الخندق، الدلالات والدروس والعبر

- تاريخ الغزوة:

وقعت غزوة الخندق باتفاق جمهور علماء السيرة في شوال من السنة الخامسة للهجرة، قال أكرم ضياء العمري: "جرت غزوة الأحزاب في شوال سنة خمس، وهو قول جمهور العلماء ومنهم ابن إسحق والواقدي ومن تابعهم، ونقل عن الزهري ومالك بن أنس وموسى بن عقبة أنها سنة أربع، ولا اختلاف بين القولين في الحقيقة، لأن القائلين أنها سنة أربع كانوا يعدون التاريخ من المحرم الذي وقع بعد الهجرة ويلغون الأشهر التي قبل ذلك إلى ربيع الأول" (السيرة النبوية الصحيحة)

- أسباب الغزوة:

تنوعت هذه الأسباب إلى مباشرة وغير مباشرة:

* أسباب غير مباشرة:

محاولة تحرير الطرق التجارية نحو الشام والقضاء على شوكة المسلمين المتنامية في شبه الجزيرة العربية، بعد أن عجزت هزيمة معركة أحد من تحق

+يق مكاسب للجيش القرشي المنتصر فيها، قال العمري: " على أثر إخفاق قريش في تحرير طرق تجارتها إلى الشام في غزوة أحد، فقد أوقع المشركون خسائر بالمسلمين في أحد، لكنهم عجزوا عن القضاء عليهم أو دخول بلدتهم، وظلت طرق التجارة القرشية مهددة، ونشطت سرايا المسلمين وغزواتهم بعد أحد حتى محت آثار أحد في المدينة والبوادي معا، فكانت قريش تفكر بالقيام بعمل عسكري يحسم الموقف لصالحها بالقضاء على المسلمين في المدينة قضاء مبرما، ونظرا إلى أن قوة قريش وحدها لا تكفي لإنجاز المهمة، فقد سعت قريش إلى التحالف مع الآخرين لحرب المسلمين" (السيرة النبوية الصحيحة)

* أسباب مباشرة:

تحريض بني النضير لقريش على حرب المسلمين، وجمعهم لتحالف كبير من القبائل العربية المعادية للإسلام، إذ"أن نفرا من زعماء اليهود من بني النضير خرجوا حتى قدموا مكة، فدعوا قريشا إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: "سنكون معكم حتى نستأصله، وقالوا لهم إن ما أنتم عليه خير من دين محمد صلى الله عليه وسلم"، ففيهم نزل قول الله تعالى: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) (النساء51، 52)، فاتفقوا مع قريش على حرب المسلمين وتواعدوا لذلك.

ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤوا غطفان فدعوهم إلى مثل ما دعوا قريشا إليه، ولم يزالوا بهم حتى وافقوهم على ذلك ثم التقوا ببني فزارة وبني مرة، وتم لهم مع هؤلاء جميعا تواعد في الزمان والمكان لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم" (فقه السيرة للبوطي)، "ويذكر موسى بن عقبة أن وفد اليهود وعد غطفان بنصف ثمر خيبر لإغرائها بالمشاركة في التحالف" (السيرة للعلي)

- الجيوش:

بلغ جيش المشركين عشرة آلاف مقاتل، وهم:" وذكر ابن سعد أن قريشا وأحابيشها ومن قدم معها من العرب كانوا أربعة آلاف ومعهم ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير ثم التحق بهم بنو سليم بمر الظهران وهم سبعمائة.

وأضاف ابن الجوزي أن فزارة كانوا ألف رجل، وأشجع كانوا أربعمائة رجل وبنو مرة كانوا أربعمائة، وبذلك يكون جملة العدد ستة آلاف وخمسمائة مقاتل، وتكون بقية العشرة آلاف مقاتل من بني أسد وبقية غطفان" (العلي)

"من الجنوب قريش وكنانة وأهل تهامة وبنو سليم، ومن الشرق قبائل غطفان، وكذلك خرجت بنو أسد، واتجهت الأحزاب الكافرة نحو المدينة، بدعم من يهود بني النضير، وبتنسيق مع من تبقى منهم داخل المدينة، قال العلي: "وكان مكان تجمع جيش قريش وحلفائها في مر الظهران التي تبعد أربعين كيلا عن مكة، حيث وافاهم حلفاؤهم من بني سليم وكنانة وأهل تهامة والأحابيش، ثم تحركوا نحو المدينة حتى نزلوا بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة. أما غطفان وبنو أسد فنزلوا بذنب نقمي إلى جانب أحد وقد سمى السيوطي القبائل النجدية المشاركة - ومعظمها فروع من غطفان – وهي:غطفان وبنو سليم وبنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرة" (السيرة للعلي)

وقد وصف الله تعالى ذلك المشهد فقال تعالى: (إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا. هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً) (الأحزاب 11:10)

- استعداد المسلمين للحرب:

بعد علم الرسول صلى الله عليه وسلم برغبة المشركين وأحلافهم في الهجوم على المدينة المنورة، استشار أصحابه رضي الله عنهم، فاقترح عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق لكبح تلك الجيوش الجرارة التي لا عهد لهم بها، في زمن كان عام جدب، " فخرجوا من المدينة وعسكر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفح جبل سلع فجعلوه خلفهم، ثم هبوا جميعا يحفرون الخندق بينهم وبين العدو، كان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف" (فقه السيرة للبوطي)

- أحداث حفر الخندق:

روى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال:" لما كان يوم الأحزاب، وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلدة بطنه وكان كثير الشعر"

وروي عن أنس رضي الله عنه:" أن الأنصار والمهاجرين كانوا يرتجزون وهم يحفرون الخندق وينقلون التراب على متونهم:

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الإسلام ما بقينا أبدا

فيجيبهم النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة، فبارك في الأنصار والمهاجرة"

"وكان طوله خمسة آلاف ذراع وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة. وكان على كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعا، وقد تولى المهاجرين الحفر من ناحية حصن راتج في الشرق إلى حصن ذباب، والأنصار من حصن ذباب إلى جبل عبيد في الغرب.

وقد تم الحرف بسرعة رغم الجو البارد والمجاعة التي أصابت المدينة في ذلك الوقت، فكان طعام الجيش قليلا من الشعير يخلط بدهن سنخ (متغير الرائحة لقدمه) ويطبخ فيأكلونه رغم طعمه الكريه ورائحته المنتنة لفرط الجوع" (السيرة للعلي)

* بشارة النبي صلى الله عليه وسلم، واستهزاء المنافقين:

"وعندما واجهت الصحابة صخرة عجزوا عن كسرها أثناء الحفر ضربها الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاث ضربات ففتتها وقال إثر الضربة الأولى :الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة، ثم ضربها الثانية، فقال :الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثم ضرب الثالثة، وقال: "الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه الساعة"

وفي البخاري: عن جابر رضي الله عنه قال: "إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة، فجاؤوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا هذه كدية عرضت في الخندق، فقال :أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم المعول فضرب، فعاد كثيبا أهيل (أو أهيم)"

فاستبشر المؤمنون وقالوا: (هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتثبيتا)، أما المنافقين فاستهزأوا من هذا الوعد فقالوا: (ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا)، وقد فضحهم الله تعالى في كثير من الآيات، نذكر منها:

(وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا)

(وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا)

(ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا)

(ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا)

(قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا)

(قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا)

(قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا)

(أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا)

(يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا)

"والآيات تشير إلى حالة النفاق وما تولده من القلق في النفوس والجبن في القلوب وانعدام الثقة بالله عند تعاظم الخطوب والجرأة على الله تعالى بدل اللجوء إليه عند الامتحان، ولا يقف الأمر عند الاعتقاد بل يتبعه العمل المخذل المرجف، فهم يستأذنون الرسول صلى الله عليه وسلم للانصراف عن ميدان العمل والقتال بحجج واهية زاعمين أن بيوتهم مكشوفة للأعداء، وإنما يقصدون الفرار من الموت لضعف معتقدهم وللخوف المسيطر عليهم، بل ويحثون الآخرين على ترك مواقعهم والرجوع إلى بيوتهم، ولم يراعوا عقد الإيمان وعهود الإسلام" (السيرة للعلي)

* حال المسلمين في حفر الخندق:

التعاون والتآزر:

"فقد لاحظ الصحابي جابر بن عبد الله ما أصاب الرسول صلى الله عليه وسلم من الجوع الشديد فطلب من زوجته أن تصنع له طعاما، فذبح معزى له، وطحنت زوجته صاعا من شعير، وصنعت برمة، وذهب جابر فدعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطعام، وساره بكمية الطعام، فصاح النبي بالمسلمين ودعاهم إلى طعام جابر، فحضر منهم ألف، وأسقط في يد جابر وأهله، لكن النبي صلى الله عليه وسلم بارك في البرمة فأكل منها الجميع حتى شبعوا وتركوا فيها الكثير، فأكل منه أهل جابر وأهدوا منه" (العلي)

وفي رواية للبخاري: "قلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت، فقلت لا مرأتي:رأيت بالنبي صلى الله عليه وسلم شيئا ما كان لي في ذلك صبر، فعندك شيء؟ قالت :عندي شعير وعناق.

فذبحت العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة، ثم جئت النبي صلى الله عليه وسلم والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج، فقلت :طعيم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان .قال :كم هو؟ فذكرت له، قال :كثير طيب، فقل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي. ثم نادى المهاجرين والأنصار فقال لهم قوموا ..وفي طريق أخرى:

فصاح النبي صلى الله عليه وسلم :يا أهل الخندق، إن جابرا قد صنع سورا فحي هلا بكم .فلما دخل جابر على امرأته قال :ويحك جاء النبي بالمهاجرين والأنصار ومن معهم ! ..قالت :هل سألك كم طعامك؟ قال :نعم، قالت :الله ورسوله أعلم.

ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال :ادخلوا ولا تضاغطوا. فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية! قال :كلي هذا واهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة)وفي رواية أخرى (فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوا وانصرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو" (البخاري وفتح الباري)

- تدبير النبي صلى الله عليه وسلم للجيش ومحاولته صلى الله عليه تفكيك تحالف قريش ورفض الأنصار:

"وقد رتب النبي صلى الله عليه وسلم جيشه، فأسند ظهرهم إلى جبل سلع داخل المدينة، ووجوهم إلى الخندق الذي يفصل بينهم وبين المشركين الذين نزلوا رومة بني الجرف والغابة ونقمى" (السيرة)

بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فذكر ذلك لهما ، واستشارهما فيه ؛ فقالا له : يا رسول الله ، أمرا تحبه فنصنعه ، أم شيئا أمرك الله به ، لا بد لنا من العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟ قال : بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما ؛ فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى (ضيافة) أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ! والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنت وذاك . فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب ، ثم قال : ليجهدوا علينا.

- خيانة يهود بني قريظة:

"وقد اشتد الخطب على المسلمين عندما بلغهم أن حلفاءهم يهود بني قريظة قد نكثوا العهد وغدروا بهم، وكانت ديار بني قريظة في العوالي في الجنوب الشرقي للمدينة على وادي مهزور، فكان موقعهم يمكنهم من إيقاع ضربة بالمسلمين من الخلف. وقد أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام إلى بني قريظة للاستطلاع، فلما رجع قال له :فداك أبي وأمي، وقال :إن لكل نبي حواريا وحواري الزبير .(2)ثم أرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فمضيا إلى بني قريظة فوجداها قد نقضت العهد ومزقت الصحيفة إلا بني سعنة فإنهم خرجوا من الحصون إلى المسلمين وفاء بالعهد. وكان ذلك على أثر سفارة حيي بن أخطب النضري الذي أقنع كعب بن أسد القرظي بنقض العهد مع المسلمين مبينا له قوة الأحزاب وأنهم قادرون على القضاء على المسلمين مواعدا له إن رجع الأحزاب عن المدينة أن يدخل معه حصنه، فأعلنت قريظة نقض العهد، وشاع الخبر بين المسلمين، فخافوا على نسائهم وأطفالهم من بني قريظة،

وقد وصف القرآن الكريم البلاء الذي أصاب المسلمين في الآية (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا (10)هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا)

الخندق وتفاجؤ قريش والأحزاب وحصار المسلمين:

وقد فوجئت قريش برؤية الخندق، واحتاروا في كيفية اقتحامه، إذا كلما هموا بذلك أمطرهم المسلمون بالسهام، واشتد الحصار وطال أربعا وعشرين ليلة، لم يكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبال، وقال قتادة إن الحصار دام شهرا، وقال موسى بن عقبة دام عشرين ليلة" العلي

عرفت هذه المرحلة مناوشات بين المسلمين والأحزاب، أدى إلى تأخير صلاة العصر وإخراجها عن وقتها، وقد وقع في ذلك قتال خفيف، إذ "عليا بارز عمرو بن عبد ود فارس قريش وقتله، وأن الزبير قتل نوفل المخزومي وأن الثلاثة الآخرين فروا إلى معسكرهم" (ابن هشام)، وقد استشهد من المسلمين ثمانية، منهم سعد بن معاذ بعد أن أصيب بسهم في كاحله، فمات منه بعد غزوة بني قريظة

- تدخل نعيم بن مسعود الغطفاني لمنع تحالف اليهود مع المشركين وقد "كان مسلما جديدا لا تعرف قريش ويهود والأعراب بإسلامه، فقام بزرع الشك بين الأطراف المتحالفة بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأغرى اليهود بطلب رهائن من قريش لئلا تدعهم وتنصرف عن الحصار، وقال لقريش بأن يهود إنما تطلب الرهائن لتسليمها للمسلمين ثمنا لعودتها إلى صلحهم (السيرة)

- النتيجة:

- اندحار الكفار بريح الصبا، عن ابن عباس قال : أتت الصبا الشمال ليلة الأحزاب ، فقال: مري حتى ننصر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت الشمال : إن الحرة لا تسري بالليل ، فكانت الريح التي نصر بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم- الصبا. (رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح).

- بدأ مرحلة جديدة من ظهور قوة المسلمين، واندحار تيار الشرك القرشي، قال صلى الله عليه وسلم: «الآن نغزوهم ولا يغزونا»

الدلالات والعبر المستفادة:

- الصبر والثبات يأتي بعده نصر الله تعالى

- أهمية نشر التفاؤل في عز الأزمة

- قيمة المؤمن ليست بأقدميته، وإنما بإيجابيته (نصرة نعيم وسلمان...)

- الحرب خدعة

- تعليم الإيثار حتى في الحروب، وسخاء الرجل الفقير جابر بن عبد الله

- تقدم القائد أمام أتباعه في الغرم كفيل بأن يجعله أكثر إقبالا على التضحية من أجله ومن أجل الدعوة

- الاعتزاز بالانتماء للإسلام رغم الضعف والحصار، ورفض إذلال الإسلام (الرد على غطفان)

- الخندق هي المرحلة النهائية لإعداد الدولة الإسلامية وتطهيرها من تيار النفاق والخيانة (مواجهة بني قريظة)

- أحد باب التمكين للمسلمين في شبه الجزيرة، وبداية نهاية قريش وأحلافها، وبداية المرحلة الجديدة من الجهاد.